المشرق

الدين المسيحي والترقي المدني

بقلم الاب انطون صالحاني اليسوعي

ان اللورد كرومر معتمد الدولة الانكليزية في مصر سابقاً كان قد نشر كتاباً عن « مصر الحديثة » تكلم فيه عن الاسلام والمسلمين ونسب تقهقرهم الى الدين . فاستاء منهُ المسلمون وردُّوا عليه . ومن جملتهم جناب الشيخ مصطفى الغلاييني في كتاب لهُ سماه « الاسلام روح المدنية . او الاسلام وكرومر » ولمَّا نفدت الطبعة الاولى اعاد طبعه واهدى الينا منهُ نسخة

اننا نعترف لهُ بحقّ الدفاع عن دينه بما يراه صواباً . والغيرة على الدين تُحمد . ولو اكتفى حضرته بالدفاع كما آخذناه . لكنه تخطَّى الى الهمز بالدين المسيحي والانجيل واوَّل آياته تأويلاً لا ينطبق على الحقيقة فحاول في الفصلين الرابع والخامس ان يُبيّن ان تعليم الانجيل ينافي الترقي الذي يطنطن بهِ اللورد كرومر . فنقول لجناب الشيخ انهُ لم ينظر في الانجيل الّا الى المعنى الظاهر من الالفاظ دون المعنى الذي قصده السيد المسيح كما سنبيّنهُ

وقبل ان نخوض في الموضوع يلزمنا ان نبيّن ما هو الترقي :

ان الترقي الحقيقي لا يقوم بالترقي المادّي فقط بل خاصةً بالترقي الادبي لان الترقي المادّي ان لم يصحبه الادبي كان كسيف ذي حدَّين لا قبضة لهُ يجرح ويؤذي من يستعملهُ . وقد صرَّح بذلك حضرة الشيخ (ص٥٠) اذ حدَّد الترقي « تهذيب النفس والعقل والتحلي بمكارم الاخلاق ومجالس الآداب » . وقد اقرَّ الشيخ (ص ٥٠) ان الدين المسيحي « هو الخيري بحث يُراد بهِ ترقي

النفس وتهذيبها واحتقار الدنيا وما فيها كما قدّمنا فالدين المسيحي إذن دين اخروي ليس الّا » . فترضى بوصف الشيخ للدين المسيحي مع استثناء الالفاظ « بحت » و« ليس الّا » . لانّ المرء ان هذّب النفس وترفّع عن الدنيويّات كان عقله اسرع قبولًا للعلوم ذكيّ الفهم كما ان الزجاج النقيّ تجتازه اشعّة الشمس وكما ان العين الصحيحة تبتهج بالنور . ومن ثمّ فعقل الانسان المسيحي المهذّب بالدين هو اكثر قبولًا للآداب والعلوم الالهية والفلسفية والرياضية والطبيعية والهندسية والصناعية وعلم الهيئة والنبات والتاريخ والجيولوجية ولكل اختراع مُفيد بذاته للانسانية . ونرى فعلاً ان معظم المخترعين والعلماء الذين كشفوا اسرار الطبيعة هم من المسيحيين وقد تفوّقوا على غيرهم في كل العلوم والفنون . ونرى ايضاً الناس المترفهين في دنياهم قلّما تنفتح عقولهم للعلوم لكونهم اجسادًا اكثر منهم نفوساً كما قال الربّ (سفر التكوين ٦ : ٣) « لا تحلّ روحي على الانسان ابدًا لانه جسد » فهم كالزجاج المطليّ بالاسبيداج لا تخترقه اشعّة الشمس وكالعين الرمداء لا تطيق النور فتغمض جفونها عنهُ . فصحّ اذًا ان الدين المسيحي هو اقوى عامل للترقي الحقيقي الادبي والدني . ولا يُستنتج من قولنا هذا ان الترقي يشمل جميع المسيحيين . فان حُكمنا يختصّ بالدين كعامل للترقي فلا يشمل الجميع لانه يوجد من المسيحيين مَن لا يتأدّبون بالدين المسيحي ولا يعملون بمقتضى شرائعه فهؤلاء هم مسيحيون بالاسم فقط

بعد ان بيّنا ما هو الترقي يلزمنا ان ننقد ما قالهُ الشيخ (ص ٥٠) عن الانجيل والدين المسيحي اذ كتب ان تعاليمه « تأمرنا بعدم الترقي في الدنيا وعدم الاستعداد الّا لما بعد الموت » قال جنابه (ص ٤٨) :

« ونحن نقول للورد كرومر : ما هو الترقي المسيحي الذي تعنيه ؟ ان كان ما هو مسطور في كتب الدين المسيحي فقد ظلمت في الحكم . لان معتمد كتب الديانة عندكم هو الانجيل ونحن نرى ان جلّ ما في الانجيل تاريخ السيد المسيح صلوات الله عليه في هذا العالم وبعد انتقاله الى العالم الآخر . وما فيه من سوى ذلك فكلّه حاثّ على ترك العالم الفاني وعدم الالتفات اليه بوجهٍ من الوجوه الّا ما يسدّ الرمق . وهو يؤنّب الاغنياء والامراء اشدّ التأنيب ويوبخ من يسعى للدنيا اقرع التوبيخ . وخير ما فيه كما يقول المسيحيون خطبة الجبل بل بالغ بعضهم وقال : انها هي الديانة المسيحية . وكلها امرٌ بالتمسك بالعالم الباقي وترك الدنيا ومن يسعى لها .

هذا وان الاقطاع عن الدنيا اصل من اصول الديانة المسيحية حتى صرّح في الانجيل بما نصّه : لا تقدرون ان تخدموا الله والمال . لذلك اقول لكم لا تغتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون اليست الحياة افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس ؟ ولكن اطلبوا اولاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تزاد لكم . فلا تغتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه . يكفي اليوم شرّه . الحق اقول لكم انهُ يعسر ان يدخل غني ملكوت السموات . واقول لكم ايضاً : ان مرور جمل من ثقب ابرة ايسر من ان يدخل غني ملكوت الله . لا تقتنوا ذهباً ولا فضّة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا عصا الخ»

فاذا يظنّ الشيخ انهُ يُستنتج من كلام السيد المسيح ؟ ان نتكتف ونتنظر من القضاء والقدر معاشنا في ما يخصّ الطعام واللباس والمأوى ؟ ان اقوال الانجيل هي الحكمة بالذات فاذا قال لنا السيد المسيح : « لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون ولا لاجسادكم بما تلبسون الخ» . فليس المعنى ان الله يطعمنا ويسقينا ويكسونا دون جدّ وسعي من قِبلنا بل المعنى ان نسعى لمعاشنا متكلين على عناية ابينا السماوي . فقد علّمنا السيد المسيح في الصلاة الربية ان نطلب قوت يومنا وما نحتاج اليه . ونعلم ايضاً ان الله قال لآدم « بعرق وجهك تأكل خبزك » . « ملعونة الارض بسببك بشقاء تأكل منها طول ايام حياتك وشوكاً وحسكاً تُنبت لك » . فلا يخفى على الشيخ ان الاقبال المفرط على الخيرات الدنيوية والتعلّق الزايد بها وجمع الاموال بنوع يُشغل المرء عن عبادة ربّه ويُلهيه عن خلاص نفسه مما يطوّح به ويحمله على كثير من الذنوب . والانسان ميّال طبعاً الى الخيرات الارضيّة فان لم يكبح هذا الميل ويحصره ضمن حدود معقولة ألقاه في لجة من الهموم فينسى خالقه ويترك عبادته وما يترتب عليهِ من تأدية الواجبات لربّه فيأثم ويهلك . هذا ما عناه السيد المسيح اذ قال انهُ يصعب على الغني دخول ملكوت السموات لانهُ يغرق في بحر غناه ويختنق . وقد اثبت ذلك السيد المسيح في مثل الزرع (ويعني بالزرع كلام الله المُلقى في عقول السامعين) . فقال عن الزرع الذي سقط في الشوك ان الشوك نبت معه فخنقه وفسّر المثل فقال : « الذي سقط في الشوك هم الذين يسمعون ثم يذهبون فيختنقون بالهموم والغنى وملذات الحياة فلا يأتون بثمر » (لوقا ٨ : ١٤) . وقال ايضاً السيد المسيح : «حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك» (متى ٦ : ٢١) .

فان جعلنا كنزنا الخيرات الدنيوية وحدها لتعلّق بها قلبنا ونسينا ربّنا . الامر الذي لا يريده لنا جناب الشيخ

واذ كانت النفس اهمّ من الجسد بما لا يُقدَّر لان خلاصها او هلاكها يصحبه خلاص او هلاك الجسد في يوم الحشر فتُلزمنا الحكمة ان نفضل النفس على الجسد. ومعلوم ان الانسان لا يحتاج الى الحثّ على اقتناء الغنى لانه يميل اليه طبعاً لكنه هو في حاجة ماسّة الى ان يُحرَّض على الاقتصاد والزهد فيه . هذا ما علّمه السيد المسيح فانهُ لا يحرّم الغنى بل التعلق به فقط

واي واعظ من المسلمين ان كتب او خطب في الجوامع لا « يوبخ من يسعى للدنيا اقرع التوبيخ » . اقرأ الخطب التي في نهج البلاغة تتحقق صحة ما نقوله . اسمع ايضاً ، رعاك الله ، كيف يؤنّب الزمخشري من يعبد الدينار والدرهم . قال في المقالة ٣٣ من كتابه « اطواق الذهب » :

« يا عبد الدينار والدرهم متى انت عتيقها . ويا اسير الحرص والطمع متى انت طليقها . هيهات لا عتاق الآن تكاتب على دينك المزرَّق . ولا إطلاق او تفادي بغيرك الملزَّق . يا من يشبه القرص . ما هذا الحرص . ويا من تُرويه الجُرَع . ما هذا الجزع . ستعلم غداً اذا تندمت . ان ليس لك الّا ما قدّمت . واذا لقيت المنون . لم ينفعك مالٌ ولا بنون . ما يصنع بالقناطير المقنطرة . عابر هذه القنطرة . وما يريد من البهجة والفرحة . نازل ظل هذه الشرحة »

فاذا كانت مثل هذه المواعظ الموجّهة الى المسلمين تبيح لهم مع ذلك الخيرات الدنيوية بشرط ان لا تمنعهم عن تأدية ما عليهم من الواجبات لله وللقريب . فلماذا جناب الشيخ يستنتج من وعظ السيد المسيح انهُ يحرّم علينا «الالتفات الى العالم الفاني بوجه من الوجوه الّا ما يسدّ الرمق» اذا كنّا لا نعبد المال كرب بل نستعمله كواسطة للمعيشة ولعمل الخير . فيرى الشيخ ان تأويله لاقوال الانجيل لم يكن مُصيباً . فالمسيح لا يحرّم علينا امتلاك الخيرات الدنيوية بل يريد ان لا نعطيها في اعتبارنا وفي سعينا لتحصيلها الّا المقام الثاني وان نخصص المقام الاول لعبادة ربّنا والاعتناء بخلاص نفسنا . وقد بيّن ذلك بقوله «اطلبوا اولًا ملكوت الله وبرّه وهذا كله يزاد لكم» (متى ٦ : ٣٣) . وبقوله « لا تقدرون ان تعبدوا الله والمال » (متى ٦ : ٢٤) . قل لي بحياتك ايها الشيخ كم من الاغنياء يعبدون المال ويهملون عبادة الله اذ يجمعون المال بالطرق

المحرَّمة والظلم او ينفقونه بما يضادّ الشريعة الالهية او يخزنونه بخلًا منهم فلا يجودون بشيء منهُ في سبيل البرّ . فمثل هؤلاء يعبدون المال فلا يقدرون ان يعبدوا الله فيصدق فيهم ما قاله السيد المسيح « انهُ لأسهل ان يدخل الجمل في ثقب الابرة من ان يدخل غني ملكوت السموات » (متى ١٩ : ٢٤) . امَّا الاغنياء الذين لا يمنعهم غناهم عن عبادة ربّهم بل يخصّصون قسماً وافرًا منهُ لعمل البرّ فيستحقون كل مديح وقد مدح السيد المسيح زكّا الذي كان رئيس العشّارين وغنيًّا فقال لهُ « اليوم قد حصل الخلاص لهذا البيت » (لوقا ١٩ : ٩) لان زكّا كان قال للرب «هاءنذا يا رب اعطي المساكين نصف اموالي وان كنتُ قد غبنت احدًا في شيء اردّ اربعة اضعاف » (لوقا ١٩ : ٨) افيتكر الشيخ ان بين المسيحيين خاصَّة في اوربة عددًا وافرًا من الاغنياء يملكون المال ولا يدَعون المال يملك عليهم فيقتنونه بالعدل والجدّ ولا ينفقونه في الحرام ويجودون بهِ على الفقراء والمعوزين والارامل والايتام وكل عمل خيري . فاذا اعطاهم الله شكروا وان سلبهم لم يتذمروا ولم يأثموا ولم يقولوا في الله جهلًا بل يرددون مع ايوب الصدّيق : « الرب اعطى والرب اخذ فليكن اسم الرب مباركًا . » فمثل هؤلاء لا يوبخهم السيد المسيح اقرع التوبيخ لاقتنائهم الخيرات الدنيوية

فباي حقّ ينفي الشيخ في تعليم الدين المسيحي ما نسبه (ص ٥١) لدين الاسلام اذ قال : « الزهد في الدنيا المطلوب شرعاً هو ان لا يغترّ المرء بزخارفها ويصبر الى مشتهياتها ان كان شيء من ذلك يضرّ بأمر الدين وأن يكون ما عنده من الاموال في يده لا في قلبه بحيث يصرفه في وجوهه المشروعة متى دُعي الى ذلك لا ان يهمل الاشغال والاعمال ويكون كلًّا على العباد » . نعمّا القول ولكن فسأل الشيخ اين يجد هذا الزهد اكثر وفورًا أعند المسلمين ام عند المسيحيين . لعمري انهُ عند المسيحيين لأوفر

وجدير بالاعتبار ان السيد المسيح وهو الذي نهى تلاميذه عن اقتناء الذهب والفضة كان يحفظ ما يقدّمهُ لهُ من الصدقة تابعوه الرجال والنساء . وقد اشار الى ذلك يوحنا في انجيله (١٢ : ٦) اذ قال عن يهوذا الاسخريوطي احد رسُل

المسيح الذي خانه وباعه واسلمه الى اعدائه ٥ انهُ كان سارقاً وكان الكيس عنده وكان يحمل ما يُلقى فيه »

فترى حفظك الله ان السيد المسيح كان يقتني المال لمعيشته ومعيشة تلاميذه واسعاف الفقراء كما يتضح مما ورد في انجيل يوحنا (١٣ : ٢٩) ٥ فظنَّ بعضهم اذ كان الكيس عند يهوذا ان يسوع قال لهُ اشترِ ما نحتاج اليه للعيد او امرهُ ان يعطي المساكين شيئاً » .. وتعلم ايضاً من مثل الرسول الخائن ان الغنى اذا تعلّقنا به تعلقاً غير معقول يدفعنا الى ارتكاب افظع الآثام . ومن ثم قد اظهر السيد المسيح حكمة إلهيَّة اذ قرَّع من يسعى لدنياه وينسى ربّه والغاية الوحيدة التي خُلق لاجلها فانما خلقنا الله لنعبدهُ ونربح الحياة الخالدة في السماء وليست الخيرات الدنيوية الّا واسطة لبلوغ غايتنا فاذا اصبحت مانعاً وكثيرًا ما تكون مانعاً ، بنا فينا من الميل اليها ، فلا بدّ من رفضها والتضحية بها احرى من التضحية بالنفس

ولم يُدرك جناب الشيخ الحقيقة في قصة حنانيا التي وردت في الفصل الخامس من اعمال الرسل واشار اليها في كتابه (ص٤٩) . فان ما كان يلقيه المؤمنون من اثمان مبيعاتهم عند اقدام الرسل لم يكن « هدية للرسل » كما ذكر الشيخ بل نذرًا للرب ينذرونه برضاهم لا اضطرارًا . يتضح ذلك مما قاله بطرس لحنانيا « الم يكن لك (ملكك) مدّة بقائه وبعد أن بيع الم يكن في سلطانك . فلماذا جعلت في قلبك هذا الامر ، انك لم تكذب على الناس بل على الله » (اعمال ٥ : ٤) . فكان يتحتم على المؤمنين اذا نذروا ان يوفوا بنذرهم لئلّا يأثموا . كما ورد في كتاب الله (الجامعة ٥ : ٣و٤) « اذا نذرت نذرًا لله فلا تؤجل الايفاء به فانهُ لا يرضى عن الجهّال فأوفِ ما نذرت . أن لا تنذر خير من ان تنذر ولا توفي » . ولو تأنّى الشيخ في قراءة القصة لكان فهم حقيقة معناها . قال سفر الاعمال : « لم يكن احدٌ يقول عن شيء يملكهُ انهُ خاصٌ به بل كان لهم كل شيء مشتركاً ... لم يكن فيهم محتاج لانّ كل الذين كانوا يملكون ضياعاً او بيوتاً كانوا يبيعونها ويأتون باثمان المبيعات ويلقونها عند اقدام الرسل فيوزَّع لكل واحد على قدر احتياجه » (اعمال ٤ : ٣٢و٣٤و٣٥)

ولم يُصب ايضاً الشيخ في ما كتبه عن الموادعة والمسالمة التي قال انها من احكام الدين المسيحي ولا في تاويله نصيحة السيد المسيح ان نُدير الخدّ الايسر لمن لطمنا على الايمن وان لا نجاري المسيء الّا بالخير الخ . فاسمع رعاك الله ما كتب (ص ١٩) :

« ان من احكام الدين المسيحي ايضاً الموادعة والمسالمة لكل من اراد المسيحي بسوء فهو يأمره ان يُدير الخد الايسر لمن يلطمه على الايمن وان لا يجازي المسيء الا بالخير الى غير ذلك من الاحكام التي لو تمسّك بها المسيحيون اليوم وتلفت باهدابها الدول النصرانية لكانت اذلّ امم الارض ولمّا قام لهم قائمة ولا عزّت لهم شوكة بل كانوا طعمة لغيرهم لان مقتضاها ان من ارادهم بشرّ يجب عليهم ان يسالموه ولا يقابلوه بمثل اعتدائه وشرّه . فهو لو غصب منهم مقاطعة وجب عليهم ان يعطوه مقاطعة اخرى جزاء عدوانه وبغيه . وهكذا الى ان يبقوا تحت نير غيرهم وحكم كل متسلط يعتدي عليهم . فما هو اذن ذلك الترقي المسيحي الذي يفتخر به كرومر . وان دينه يأمره بعدم الترقي في الدنيا وعدم الاستعداد الّا لما بعد الموت . ان كنتم متمسكين بالآداب المسيحية التي تدّعون انها سبب رقيكم ونجاحكم فلمَ تسعون للدنيا سعيكم العروف وتشنّون الحروب وتهيجون الدماء بيع الماء للحصول على لذة التحكم والغلبة اذاكم لم تعملوا بالآداب المسيحية بل بضدها فلستم اذاً مسيحيين وهذا الترقي ليس مسيحياً . الترقي المسيحي الذي يأمر به الانجيل هو اخروي بحت يراد به ترقي النفس وتهذيبها واحتقار الدنيا وما فيها كما قدّمنا فالدين المسيحي اذن دين اخروي ليس الّا »

فنشكر لحضرة الشيخ وصفه الدين المسيحي بأنهُ يرقّي النفس ويهذّبها ويجعلها تحتقر الدنيا وما فيها . ولكن لا نسلّم لهُ بان السيد المسيح أراد كل النتائج التي استخرجها جناب الشيخ من اقوال الانجيل . وبما انهُ مطلع على الانجيل كما يظهر لنا لا يخفى عليه ان السيد المسيح لُطم على خده امام محفل اليهود ، لطمهُ احد الخدم لانهُ اجاب رئيس الكهنة . فلم يُذكر ان المسيح ادار للخادم الخد الآخر ليلطمه ثانيةً . فلماذا لم يعمل ما سبق وحرّض عليه تلاميذه وهو مثال للمسيحيين في كل شيء وقد اكّد ان « الذي يعمل ويعلّم فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السموات » (متى ٥ : ١٩) . فالسيد المسيح ليس فقط لم يُدر الخدّ الآخر بل التفت الى الخادم وقال له : « ان كنتُ تكلمتُ بسوء فاشهد عليَّ بالسوء . وان بخير فلماذا تضربني » (يوحنا ١٨ : ٢٣)

فيرى الشيخ ان المعنى ليس كما يظن بل ان السيد المسيح اراد منع ما هو مذموم في الغيظ والغضب لا ما هو ممدوح . فالانسان الغير الوديع كثيراً ما

يدفعه طبعه الشرس اذا غضب الى ارتكاب ما لا يُحمد من تعدٍّ وشتم ومشاجرة وانتقام وضرب وقتل . الامر الذي لا يرضاه جناب الشيخ وكل انسان عاقل مسيحيًا كان ام يهوديًا ام مسلماً . فلكي يبعدنا السيد المسيح من كل هذه الشرور غالى في كلامه ليرسخ في عقول السامعين تعليمه وقال : « من لطمك على خدك الايمن فحوّل له الآخر » (متى ٥ : ٣٩) . وهكذا الحكم في ما يلي هذه الآية . لان الشريعة الموسوية كانت « العين بالعين والسنّ بالسن » فاراد السيد المسيح ان يُبدل هذه الشريعة بشريعة المحبة والموادعة والمسالمة والمسامحة . وقد قال لنا « تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لانفسكم » (متى ١١ : ٢٩) ومع ذلك كان اذا اقتضى الامر يقرّع الكتبة والفريسيين امرٌ تقريع . قال (متى ٢٣ : ٢٣ — ٣٣) « الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المرائون فانكم تُعشرون النعنع والشبث والكمّون وتتركون أثقل ما في الناموس وهو العدل والرحمة والايمان . وكان ينبغي ان تعملوا هذه ولا تتركوا تلك . ايها القادة العميان الذين يُصفّون من البعوضة ويبلعون الجمل . الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المرائون فانكم تنقّون خارج الكأس والجام وداخلهما مملوء خطفاً ودعارةً . ايها الفريسي الاعمى نقِّ اولًا داخل الكاس والجام حتى يتطهّر خارجهما ايضاً . الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المرائون فانكم تُشبهون القبور المجصّصة التي تُرى للناس من خارجها حسنة وهي من داخلها مملوءة عظام اموات وكل نجاسة . كذلك انتم ترى الناس ظاهركم مثل الصديقين وأنتم من داخل ممتلئون رياء واثماً . الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المرائون فانكم تُشيّدون قبور الانبياء وتزيّنون مدافن الصديقين وتقولون لو كنّا في أيام آبائنا لما كنّا شاركناهم في دم الانبياء . فانتم تشهدون على أنفسكم انكم بنو قتلة الانبياء . فجمّعوا انتم مكيال آبائكم . ايها الحيّات اولاد الافاعي كيف تهربون من دينونة جهنم »

هذا هو لعمري الترقي المسيحي الشريف والجميل والممدوح ان نكون مثل المسيح ربّنا ودعاء متواضعين مسامحين لا نمزّق الاعراض والاجسام كالوحوش الضارية وان لا نكون مع ذلك ضعفاء بل ابطالًا نغضب لله وللحق والفضيلة

والدين كالمكاييل الذين بمساعيهم اعادوا مجد أمتهم . ولا يخفى عليك ان جمعية الامم تسعى للوصول الى الترقي المسيحي بان كل خلاف يقع بين الامم والممالك يسوّى بالتي هي احسن اي بالمسالمة والمرادعة لا بالعداوة والقوة والسلاح . هذا هو روح المسيح وروح كنيسته فاذا كان الدين المسيحي يرغب الينا ان نكون متواضعين وودعاء ومسالمين فلا يطلب منا ان نكون جبناء وان نترك حقوقنا تُهضم . وما سبب اقامة المحاكم . أليس لتأخذ للمظلوم من الظالم اللهم اذا جرت المحاكم بمقتضى العدل ولم تقبل الرشوة التي ينهى عنها الدين المسيحي . ايرضى الشيخ للانسان الذي قاسى الضيم من عدوه ان ينتقم لذاته

وليعلم الشيخ ان ترقي الافراد يختلف عن ترقي الجماعة والحكومة فترقي الأمّة والحكومة لا يقوم بان تُعد في حطام الدنيا وتلزم الفقر وتُغضي على الاذى وتصبر على الضيم وان تعامل بالمغفرة من اساء اليها معتدياً على حقوقها . بل يقوم بان تكون عادلة في شرائعها وحكامها وقضاتها محافظة على حقوق الامة والافراد فلا تسمح بان تُهضم . وان تكون غنية قوية بالعدد والعُدد يمكنها ان تدافع برًّا وبحرًا عن ممتلكات الأمّة وحدود المملكة لئلا يغتصبها عدوّ وان تساعد ابناءها على كسب المعيشة بتنشيط العلوم والاختراعات والفلاحة والصناعة والتجارة . وان تسهّل المواصلات بين اطراف البلاد بفتح الطرقات وان تؤلف جميع القلوب ليكونوا يدًا واحدة في منفعة الوطن وردّ غارات العدوّ . فتعزّ شوكتها ولا تجسر دولة ان تطمع بها وتتعدى عليها او تريدها بشرّ وتغصبها مقاطعة او تبغي عليها

فالدين المسيحي لا يمنع الحكومات النصرانية من ان تكون فيها هذه الصفات الرغوبة ، بل يحثها جدًّا على اكتسابها . هو الذي علّم الشعوب المساواة والاخاء والعدل والمحبة . هو الذي حرّر البشر بعد ان كان معظمهم قبل السيد المسيح ارقّاء وعبيدًا يباعون كالبهائم والسلع تاهين في مهامه الجهل . هو الذي رفع مقام المرأة واعتبرها رفيقة للرجل لا عبدة له . هو الذي منع تعدّد الزوجات والطلاق آفة الميل . هو الذي نشر العلوم ورقّى الفنون . فالحكومات الاوربية وان كان بعضها انفصل عن الدين تسير مع ذلك بمقتضى ما اكتسبته سابقاً من

الدين المسيحي لما له من التأثير البليغ في افكارها وشرائعها واعمالها . وليست شرائعها الّا شرائع يوستنيان الملك المسيحي مهذّبة بالحق القانوني الكنسي

ومن ثم فلم يكن من خطر على « الدول النصرانية ان تكون اذلّ امم الارض » ولا ان يكون المسيحيون « طعمة لغيرهم » وان غصب عدوّ مقاطعة من بلادهم لا يرون واجباً عليهم « ان يعطوه مقاطعة اخرى جزاء عدوانه وبغيه » . ولا « ان يبقوا تحت نير غيرهم وحكم كل متسلط معتدٍ عليهم » ذليلين واحياء كاموات

ومعلوم ان ترقّي الافراد اذا عمّ وكثر في امّة يساعد على ترقّي الحكومات . والحكومات وان كان بعضها فصل الدين عن المدنية لم يقوَ على فصل معظم ابناء المملكة عن الدين فينسب رقيها الى ترقّيهم . فبقدر ما يكثر في مملكة عدد الافاضل والعلماء والمخترعين ومن يُحسن الفلاحة والتجارة وارباب الصنائع والفنون الجميلة بقدر ذلك تترقى تلك المملكة . وقد سبق القول ان الدين المسيحي من اقوى العوامل على ترقّي الأفراد

ألقِ بنظرك الى خمس قارات العالم ترَ جماعات المسيحيين وافرادهم ينفقون بيدٍ سخية مئات الالوف والملايين من الليرات على بناء الكنائس ودور العلم والمستشفيات والمآوي للفقراء والعجز والايتام ومختلّي العقول ليس فقط لبني امتهم لكن ايضاً للفقراء من مسيحيين ومسلمين ووثنيّين وقد انشئت لهذه الغاية جمعيات وهيئات خصصت ذاتها لهذه الاعمال وما غايتها الّا نشر العلوم وافادة البشر وخدمة الانسانية والتقرّب من الله تعالى . اليس هذا الترقي المسيحي الحقيقي؟ يؤيد قولنا ما نراه من التهوّر والانحطاط في الآداب عند الشعوب التي يضعف فيها الدين المسيحي فيعودون همجاً وحوشاً فيندفعون الى ارتكاب افظع الآثام كما حدث في الثورة الفرنسية الكبرى اذ تعدّى جمهور منهم على الدين المسيحي وحاولوا محوه فاثاروا الحرب الاهلية وقتلوا كثيرين من رجال الدين والمتدينين ولم تهدأ الاضطرابات في البلاد ولم تجد الامّة الراحة الّا لما اعاد نابوليون بونابرت الدين الى المملكة وصالح الكنيسة . واليوم يحدث اقظع من ذلك في

البلاد الروسية التاعسة حيث عمّ الخراب الديني والادبي والمادّي بسبب عداوة اولي الامر الشديدة للدين المسيحي . وهكذا القول عن المكسيك حيث قام نيرون ثانٍ شرّ من الاول. فأبدى الكهنة والرجال والنساء والاولاد حماسة في دينهم وبسالة في قبول الموت لاجل ايمانهم يُقضى منها العجب

اليس الدين المسيحي الذي حفظ من الخراب الامتين النشيطتين پولونية وايرلندة ؟ فپولونية بعد ان بقيت زمناً مديداً تحت نير روسية وپروسية الخشن منحها الدين المسيحي حياة جديدة وفخرًا وسطوة. والدين المسيحي ايضاً هو الذي حرّر ايرلندة بعد ان كانت خاضعة ذليلة لانكلترة

فقد ثبت اذًا ان تعليم الانجيل ليس فقط لا ينافي الترقي المدني بل هو مصدره ومورده ويساعد على حفظه وانتشاره . فالدول الاوربية هي مَدينة للترقي الباهر الذي نشاهده فيها

وان اعترضتَ وقلتَ ان اليابان تضاهي الامم الاوربية في الترقي المدني ، واليابان دولة وثنيّة لا مسيحية ، اجبتك ان هذا الترقي لم ينشأ في اليابان الّا بعد الانقلاب الذي حدث في السنة ١٨٦٨ اذ اختلط اليابانيون بالممالك المسيحية واقتبسوا منهم ما يسمّونه « ميجي » اي عصر النور .. فادخلوا في بلادهم النظام الاوربي المسيحي في ما يتعلق بالادارة والعدلية والحربية والبحرية والمالية والنافعة والمعارف . فاليابان مَدين الدين المسيحيّ في ما اكتسبه من الترقّي المدني .

قل لي رعاك الله اذ كانت دولة الاتراك في ايام سطوتهم يجتازون من برّ الاناضول الى بلاد اليونان فالبلغار فالرومان فالصرب فهنغارية حتى النمسة ويشنّون الحروب على الامم المسيحية « ويبيعون الدماء بيع الماء للحصول على لذة التحكم والغلبة» كما كتبتَ أكان عملهم هذا من الترقي الممدوح ام من التعدّي المذموم. وقد مكثوا سائدين على معظم تلك البلاد وعلى مصر وسوريّة وبلاد بين النهرين وجزيرة العرب وغيرها من البلدان مئات السنين فايّ ترقٍّ احدثوا فيها الّا ترقي الخراب. واذ بدأوا يتنعمون بالترفه في العيش وتأففوا من الزهد في

الخيرات الدنيوية اخذوا في الانحطاط والتقهقر وخسروا تباعاً كل ممتلكاتهم في اوربة ما عدا بقعة الاستانة لعدم اتفاق دول اوربة على من يمتلكها منهم . وخسروا مؤخراً كل البلاد الاسيوية ما عدا برّ الاناضول فعادوا الى حيث كان مركز دولتهم قبل ان تمتدّ

فحضرة الشيخ يبين لنا سبب هذا الانحطاط . قال (ص ٥٤ و ٥٥) :

« واقول ان المسلمين حادوا ايضاً عن الدين لان القرآن يأمرهم بالاقتصاد في الدين والدنيا وان يكونوا آخذين بالترقيين الدنيوي والاخروي فتركوا الدنيا ثم تبع ذلك تركهم للدين فاصبحوا مذبذبين واضاعوا الدين والدنيا معاً فخسروا بذلك خسراناً مبيناً حتى صدق عليهم قول نبيهم اخسر الناس صفقةً من اخلق يديه في آماله ولم تساعده الايام على امنيته فخرج من الدنيا بخير زاد وقدم على الله بغير حجة . غير ان الفرق بين المسلمين والنصارى من حيث ترك الجميع للدين كبير . فالنصارى تركوه لما هو ارقى واسمى من حيث الترقي المدني والمعاشي واختلقوا لذلك عذراً يتذرون به وهو فصل الدين عن المدنية او السياسة . والمسلمون تركوه لما هو اذلّ واحطّ في الدنيا والآخرة . فلما ترك اولئك الدين وتمالبه القاضية بأن يكونوا روحيين فقط لا يتطلعون بأهداب الدنيا نجحوا وارتقوا في سلم الحضارة الدنيوية الى غاية يقصر عنها الوصف . غير انهم اكثرهم سقط من جهة الاخلاق والدين في هوّة سحيقة لانهم بتمسكهم بالدنيا تمسكاً كلياً اهملوا جانب الدين وما يأمر به من المكارم والاخلاق والرحمة »

هذا كلام الشيخ نقلناه بحرفه . والشيخ اعلم بدينه ونحن اعلم بديننا . ونعلم ان الترقي الدنيوي في الامم المسيحية ينتج عن الدين كما بيّنا ذلك وبيّنّاه . ومتى انحطّ الدين في مملكة مسيحية انحط فيها الترقي الدنيوي

واعجب مما سبق تأويل الشيخ لآيات الانجيل (لوقا ١٤ : ٢٦ ومتى ١٠ : ٣٤) فقال (ص ٥٢) يقابل تعاليم الانجيل مع تعاليم القرآن :

« فان الثاني (اي الانجيل) يأمر المرء ان يُبغض اباه وامه واولاده واصحابه ليتبع المسيح عليه السلام حتى انه قال لا تظنوا اني جئتُ لألقي سلاماً على الارض ما جئت لالقي سلاماً بل سيفاً فاني جئتُ لافرّق الانسان ضدّ ابيه والابنة ضدّ امها والكنّة ضدّ حماتها واعداء الانسان اهل بيته »

ان حضرة الشيخ يجهل او يتجاهل . فكيف يمكن ان لا يوصي المسيح بمحبة الابوين والأهل والاولاد والزوجة وهو الذي صرّح بقوله « احبب الرب

الملك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك . هذه هي الوصية العظمى والاولى والثانية التي تشبهها احبب قريبك كنفسك » (متى ٢٢ : ٣٧ــ٣٩) وهو الذي اوصانا قائلاً : « احبوا اعداءكم واحسنوا الى من يبغضكم وصلوا لاجل من يعتشكم ويضطهدكم » (متى ٥ : ١٤) ولا يخفى عليك ايها الشيخ ان الشريعة المسيحية هي شريعة المحبة : ولم يتعدّ قط المسيحيون على المسلمين بل كانوا هم كالحملان تقاد للذبح . ولكن اسمع ايها الشيخ تأويل كلام الانجيل الصحيح في آية الانجيل التالية التي ذكرتها في كتابك . قال السيد له المجد (متى ١٠ : ٣٧) « من احبّ اباً او اماً اكثر مني فلن يستحقني . ومن احبّ ابناً او بنتاً اكثر مني فلن يستحقني . ومن لا يحمل صليبه ويتبعني فلن يستحقني » . فالمراد من كلام المسيح ان نفضّل محبة الله على محبة كل انسان حتى اعزّ اقربائنا كآبينا وامّنا . فاذا كان قد قال الله (تكوين ٢ : ٢٤) : « لذلك يترك الرجل اباه وامّه ويلزم امرأته » فكم بالحري اذا كان ابي او امي او اخي او اختي او احد اقاربي يريد ان يبعدني عن ديني او عن عبادة الله يتحتم عليّ ان اتركهم وابغض عملهم هذا واتبع الله . فلو افترضنا ان ولداً مسيحياً عاشر المسلمين فلقنوه دينهم فرآه لجهله صرابياً واراد ان يدخل فيه فمنعهُ اهله واخوته واقاربه واصحابه وحاولوا ان يردّوه عن قصده افما كان يقول له الشيخ ان يقاوم اهله واخوته واقاربه واصحابه ليدخل في دين الاسلام ويعتبر ذلك غيرةً منه . هذا هو البغض الذي يتكلم عنه السيد المسيح لا كما فهم الشيخ . هذه هي المداوة المدوحة ان نعادي كل البشر حتى اهلنا واعزّ اصحابنا ولا نعادي الله تعالى وان نحبّ ابانا السماوي اكثر من كل ابنٍ ولمٍ واخٍ وزوجة على الارض . هذا هو السيف الذي يشير اليه السيد المسيح . فاذا قبل ابن او ابنة تعليم الانجيل ورفضه الاب او الامّ كان الانجيل كسيفٍ يفرّق الابن عن ابيه والابنة عن امّها لاختلاف المعتقد خاصة اذا كان ثمّ اضطهاد من الاب او الامّ للابن او للابنة بسبب الدين . اقرأ كل آيات الانجيل تفهم معنى كلام السيد المسيح المتلئ حكمة وقداسةً

قلو فهم الشيخ معنى الانجيل لما سطّر ما ورد في كتابه (ص ٥٣):

« ولو قال قائل ان الانجيل يأمر بالمسالمة والرحمة فما بالك تصفه بانه يأمر بايقاع ذات البين والتفرقة بين المرء وزوجه والوالد وابويه والصديق واصحابه . الم يقل احبّوا اعداءكم باركوا لاعنيكم الخ نقول ذلك حقّ ولكنه يهدم في موضع ما يبنيه في موضع آخر فلا يكاد يُثبت في نفس القارئ ما يناه حتى يزعزعه بكلام آخر فيتركه حيران لا يستقرّ على رأي ولا يأخذ بخلق . ألم يأمر اصحابه بالاتيان باعدائه وذبحهم تحت اقدامه وان يبغض الرجل اباه وامه . الخ »

فنقول للشيخ : كن مطمئنًا من جهة المسيحيين لانهم يُدركون تعاليم الانجيل ومعناها وليسوا حيارى . فالسيد المسيح اعطى مثل رجل شريف ذهب الى بلد بعيد ليأخذ لنفسه ملكًا ويعود . وكان اهل مدينته يبغضونه فأنفذوا في إثره رسلًا قائلين لا نريد ان يملك علينا هذا . فلما اخذ الملك ورجع انزل القصاص باعدائه وقال « امّا اعدائي هؤلاء الذين لم يريدوا ان املك عليهم فأتوا بهم الى ههنا واذبحوهم امامي » (لوقا ١٩ : ٢٧) فترى ان الكلام كلام الملك في المثل ويُراد بالمثل ان الله تعالى يوم الدين يعامل بقساوة من لم يقبل الايمان بالمسيح انه ابن الله كما يعامل ملوك الارض بقساوة من يعصاهم من سكان المملكة ويرفض الطاعة لهم . فحضرة الشيخ يورد الكلام كأنّ المسيح امر في حياته ان يُذبح اعداؤه امامه . ومعلوم ان السيد المسيح إله الوداعة والمسالمة والرحمة لم يأتِ لينشر دينه بالسيف بل بالاقناع وبكمال تعاليمه وسموّها وبالمعجزات العديدة التي صنعها وخاصةً بقيامته من الموت . وكان يعامل برأفة لا مزيد عليها الخطأة ما داموا في هذه الحياة ويدعوهم الى التوبة ويحتنيهم بحنوّه

اما قول جناب الشيخ ان الانجيل او بالحري المسيح يهدم في موضع ما يبنيه في موضع آخر فهو في منتهى العجب ويبيّن صريحًا ان الشيخ لم يقرأ الانجيل بكامله او انه لم يفهم معناه . فالانجيل لا احد يجد فيه تناقضًا في تعليم الفضيلة وترويض النفس اذا تأدب بآدابه وقابل آياته بعضها ببعض وفهم المعنى الذي اراده الربّ . وها نحن نبين لك بالاختصار ايها الشيخ ما علّمنا اياه السيد المسيح ولم تأتنا الّا بالنزر منه . وذلك املًا منّا بانك تفقه سموّ الدين

المسيحي وقداسته وتحترمه لانه يرفع من يتبعه الى اوج الكمال ويرقيه الى اعلى درجة من التمدن

قد اوصانا السيد المسيح كما يذكر الانجيل بالسير في الطريق التي توصلنا الى الحياة الخالدة في السماء وذلك بأن نحفظ وصايا الله ووصايا الكنيسة التي تنوب عنه. فامرنا بان نحبّ الله فوق كل شيء ونحبّ قريبنا كنفوسنا. والقريب هو كلّ انسان حتى العدوّ. وحرّضنا على اعمال التوبة ومقاومة ما يهيج فينا من الاهواء الفاسدة كالغضب والحسد والاميال الدنسة الزنانية. فقد قال «من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنا بها في قلبه» (متى ٥ : ٢٨) يحرّم الدين المسيحي كل فكر وعاطفة ونظر وقول يضادّ العفة. فالدين يخرق العقل والقلب والمخيلة والحواس ليحفظ الانسان بكامله طاهرًا. ويوصينا السيد المسيح بالصلاة والاماتة لكي ننال العون من العُلا وننتصر على تملق الجسد بالشهوة وتجارب ابليس فقد قال «ان لم تتوبوا تهلكوا جميعكم» (لوقا ١٣ : ٥) «صلّوا لئلا تدخلوا في تجربة» (متى ٢٦ : ٤١). وينادي الربّ بانطوبى للساكين بالروح والودعاء والحزان والجياع والعطاش الى البرّ والرحماء والانقياء القلوب والفاعلي السلامة والمضطهَدين من اجل البرّ. ويحرّم علينا الحلف ضدّ الحقّ او بغير ضرورة او بدون وقار لئلا نهين اسم الله القدوس. ويوصينا بان نتقزز من كل قلبنا لمن اساء الينا. ويامرنا في ما يخصّ الاعمال الصالحة كالصلاة والصوم والصدقة أن لا نصنعها لكي ينظرنا الناس ويمجّدونا بل لوجه الله ومرضاته. فقد قال «واذا صليتم فلا تكونوا كالمرائين فانهم يحبون القيام في المجامع وفي زوايا الشوارع يصلّون ليظهروا للناس» (متى ٦ : ٥) ويُلزمنا بالطاعة لرؤسائنا ان روحيين وان مدنيين بشرط ان لا يأمرنا هؤلاء بما يضادّ شريعة الله فيلزمنا اذ ذاك ان نضحي بحياتنا حفظاً للشريعة فقد قال «لا تخافوا ممن يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس بل خافوا ممن يقدر ان يُهلك النفس والجسد في جهنم» (متى ١٠ : ٢٨) ونلتزم ايضاً بأن لا ننكر ديننا لا من خوف ولا من حياء بشري لئلا ينكرنا الربّ في يوم الدين «من ينكرني قدام الناس انكره انا قدام ابي الذي في السماوات» (متى ١٠ : ٣٣) وقد اعاد الزواج الى قداسته

الاولى بمنعه الطلاق على الاطلاق . الى غير ذلك من المواعظ التي تنير العقول وتخشع القلوب وتبعد الانسان عن اباطيل الدنيا الغرور

وقد شاء حبًّا لنا وليشجعنا بمثله ان يسير قدامنا في الطريق التي اوضحها لنا طريق الزهد والتواضع والاماتة . فدبّر بحكمته الازليّة ان يكون ميلاده البشري في مذود وبفاقة لا مزيد عليها . ولم يمنع وهو الاله القدير ان يُضطهد وهو طفل . ولم ينجُ من القتل الّا بالتغرُّب والهرب الى مصر ليلًا كالضعيف الذي لا قدرة له ولا مُعين . ولما ترعرع وشبّ صرف معظم حياته في شغل النجارة ليكون قدوة للعمّلة في اتعابهم . واذ شرع بنشر الدعوة لم يقابله عظام القوم الا بالحسد والبغض والعداوة والاضطهاد رغمًا عما اظهر من المحبة والرأفة والصبر والاناة نحو الجميع ورغمًا عمّا صنع من المعجزات في شفاء كل من كان به مرض وفي اقامة الموتى . وقد قبل الموت ليكون كفّارة عن خطايا البشر ويستمدّ لهم المغفرة من الآب السماوي . فخضع لجميع الآلام . خانه احد تلاميذه وخذله الباقون وقبض عليه اعداؤه اذ كان يصلّي في بستان الزيتون وحكموا عليه بالموت لانه صرّح بانه المسيح ابن الله . فذاق من العذابات امرّها ومن الهوان اعظمه . جُلد على العمود وكُلّل بالشوك وهُزئ به وعُلّق على خشبة بين لصّين كانهُ اكبرهما جرماً . وكان وهو غائص على الصليب في بحر من الاوجاع والاحزان والاهانات يصلي لاجل اعدائه وقاتليه حتى اسلم الروح

هذا هو الدين المسيحي وهذه هي حياة منشئهِ على الارض قد انقضت من المهد الى اللحد في الفقر والتواضع والاماتة والوداعة والصبر والمحبة والمغفرة وعمل الخير . ولم يكد المسيح يموت حتى انتصر وقام من القبر ممجدًا . ولم يلبث العالم ان تنصّر مع ان ملوك رومة الوثنيين اثاروا الاضطهاد العنيف على الدين المسيحي مدة ثلاثمائة سنة فقتلوا من المسيحيين مئات الالوف في كل جهات المملكة البعيدة الاطراف من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب فجرت دماؤهم كالانهر . لكنّ الدين المسيحي انتصر على الوثنية واليهودية كما انتصر في ما بعد على كل اضطهاد وكما ينتصر اليوم على روح الكفر المنتشر في العالم . فان الكنيسة الكاثوليكية تتجلى ببهاء يفوق ما عودتنا اياه في ما مضى من

حياتها وذلك بتقوى معظم ابنائها وطاعتهم واحترامهم ومحبتهم لها فانهم مع رعاتهم متحدون مع راس الكنيسة المقام من السيد المسيح اتحاداً يُقضى منه العجب. وسلطة الكنيسة هي الوحيدة التي تثبت قوتها في العالم محترَمة ومعزَّزة بينما نرى كل سلطة سواها متزعزعة ضعيفة. ان كنيسة المسيح هي كسفينة تجري في بحر هذا العالم بين الرياح العاصفة والامواج المزبدة . فلا تخشى الغرق لان المسيح معها يؤيدها بقدرته . فنشاهدها ناشرة شراع شرائعها تستعين بالرياح المعاكسة لها تكسر الامواج المتدفعة عليها وتسرع بمن فيها الى الامام الى ميناء الخلاص

افيمكن للشيخ بعد هذا ان يدّعي بان الدين المسيحي لم يُحدث ترقياً في العالم . لا لسري لا يمكنهُ . لانه اذا كان بقي في العالم ترقٍ مدني فالفضل في بقائهِ لا يُعزى الا للديانة المسيحية . انّ الشيخ يسلم بكمال الدين المسيحي لكنه يقول (ص ٥٤) « ان المسيحيين جميعاً حادوا عن دينهم . وذلك لان الانجيل يأمرهم بترك الدنيا بتاتاً وترك الحروب وادارة الخدّ الايسر لمن ضربهم على الايمن الى غير ذلك . وهم تركوا كل ذلك وتمسكوا بضدّ مبادئهِ وتعاليمه وآدابه »

اننا ننكر ما يدّعيه الشيخ من ان المسيحيين جميعاً حادوا عن دينهم . فالكاثوليك يبلغون اليوم ثلاثمائة وخمسين مليوناً والبروتستانت والاورثذكس مائتي مليون . فلو كانوا جميعهم حادوا عن دينهم افيمكن ان يكون وجود للديانة المسيحية في العالم . وهي بزدهرة ازدهاراً عجيباً

اما قوله ان الانجيل « يأمرنا بترك الدنيا بتاتاً وعدم الالتفات اليها بوجه من الوجوه الا ما يسدّ الرمق وادارة الخدّ الخ » فقد برهنا فساد تأويل الشيخ هذا . وفي ما قلناه كفاية